عندما ينفعل الشعراء فى الحادث الجلل :

المراثى النبويّة وشعراؤها

للأستاذ محمد عبد الغنى حسن

لاشك أن حادث انتقال سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى كان حدثا عظيما تفزعت له قلوب العرب والمسلمين فى شبه الجزيرة العربية وفيما جاورها من البلاد التى ارتبطت بها ببعض الأسباب . ولقد أثارت وفاة الرسول الكريم كوامن الأحزان والأشجان عليه من كل من سمع بالخطب فيه . لم يخل من ذلك رجل أو امرأة ، شاب أو شيخ إلا مارواه لنا « ابن الكلبى » ، ونقله عنه الإمام يوسف بن عبد البر النمرى القرطبى فى « باب الشماتة » من كتابه الممتع : (بهجة المجالس ، وأنس المجالس) حيث قال :

(لما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم شمتت به نساء كندة وحضرموت ، وخضبن أيديهن ، وأظهرن السرور لموته وضربن بالدفوف . فقال شاعر فيهم :

أبلغ أبا بكر إذا ما جئته
أن البغايا رمن شر مرام
أظهرن من موت النبى شماتة
وخضبن أيديهن بالحنّام

فاقطع — هديت — أكفهن بصارم
كالبرق أومض فى متون غمام

وموضوع مراثى الشعراء للرسول عليه الصلاة والسلام لم أجده مجموعا فى كتاب ، ولم أقع عليه بحثا مستقلا ، أو فصلا قائما بذاته فى كتب السيرة النبوية ، أو مطولات التاريخ ، أو الأخبار والطرائف والمحاضرات الأدبية ، كسيرة «ابن هشام» «والسيرة الحلبية» ، «وتاريخ الأمم والملوك» للطبرى ، و«الكامل» لابن الأثير « والبداية والنهاية » لابن كثير ، « والبيان والتبيين » للجاحظ ، « والعقد الفريد » لابن عبد ربه . ولم أجده حتى فى الباب المطول الذى عقده « النويرى » فى الجزء الخامس من كتابه (نهاية الإرب) تحت عنوان : «المراثى والنوادب» ، ولكننى لممت أطرافه ، وجمعت متفرّقه من بضعة عشر كتابا سأذكرها فى سياق الحديث ، وفى خلال البحث ، تسهيلا للدارس ، وعونا للباحث .

وعجيب جدا أن تمر على الأمة العربية الإسلامية هذه القرون الأربعة عشر الطويلة

(*) ألقى البحث فى الجلسة الرابعة من مؤتمر الدورة الثامنة والأربعين بتاريخ ٣٠ من ربيع الآخر ١٤٠٢ هـ ، الموافق ٢٤ من فبراير ١٩٨٢ م .

وأن يمر على وفاة هاديها وزعيمها محمد ابن عبد الله هذا الزمان الممتد المبسوط . فلا تجد موضوع « وفاته » وما يتصل بها مضموماً ملموما . كما تجد موضوع مولده الذى أكثر النظم والنثر فيه عشرات وعشرات من الشعراء والكتاب منذ القرن السابع الهجرى حتى يومنا هذا . من أمثال (مولد النبي الشهير بالعروس) للبرعى الشاعر اليمنى ، ومولد النبى لأحمد ابن قاسم الحريرى الأندلسى ، والمولد النبوى لعائشة الباعونية ت ٩٢٢ هـ ، ومولد البرزنجى المشهور ت ١١٧٧هـ ، ومولد البشير النذير للحسينى ت ١٣٠٣ هـ ، ومولد النبى لمحمد العبادى المصرى ت ١٣٠٠هـ . ومولد الشيبانى ، ومولد النبى لسيدى أحمد الدردير المصرى ت ١٢٠١هـ وقبره يزار بالكحكيين ، والمولد النبوى المختار للمرحوم الشيخ عبد الله عفيفى الدرعمى الإمام بقصر عابدين قبل الثورة ، ويجمع بين النظم والنثر . وقد أقرته مشيخة الأزهر ليتلى وينشد فى أيام مولد النبى ، بدلا من الموالد القديمة التى عطلت.

ونجد المولد النبوى حتى فى اللغة الفارسية والتركية ، كمولد سليمان چلبى الذى ترجمه إلى العربية أخيرا الدكتور حسين مجيب المصرى ، الخبير بلجنة المعجم الكبير إحدى لجان مجمعنا ... ولا أدرى لماذا لم تجمع مراثى الشعراء للنبى فى كتاب واحد منذ القدم ، كما جمعت — مثلا — مراثى الشعراء للبارودى الشاعر ، ومراثى الكتاب والشعراء لعبد الله فكرى . ومراثى الشيخ محمد عبده . والمراثى التى قيلت فى رثاء بشارة تقلا باشا أحد مؤسسى الأهرام . والمراثى التى قيلت فى رثاء سعدزغلول . والمراثى التى نظمت فى رثاء أستاذنا محمد اللواتى بك أستاذ الرياضيات بدار العلوم . وزملينا وأستاذنا د . مهدى علام يعرف خبر هذه الأخيرة . وأظنه لم ينس مطلع قصيدة أستاذنا الشاعر البدوى : الشيخ محمد عبد المطلب . حيث يقول مجنسا :

أعينى أين أدمعك اللواتى
ذرفن دما غداة قضى (اللواتى)

ويبدو أن شعراءنا منذ القدم ومدونى أدبنا اهتموا بشعر « المولد » لأن الولادة استقبال للحياة .. أما شعر المراثى فهو توديع للحياة .. أو لأن ميلاد النبى ووفاته وقعا فى تاريخ واحد — على الراجح — وهو الثانى عشر من ربيع الأول ، فآثروا الاحتفاء بأقواهما وهويوم استقبال الحياة ..

وإنما يصادف القارئ عن وفاة النبى وملابساتها نبأ هنا ، أو مرثية هناك ، حتى إنك لا تجد فى كتاب المؤرخ الطبرى فى التاريخ — على طوله وضخامته وتوسعه فى أخبار الرسول ، وولوع صاحبه برواية الشعر المناسب لأحداث التاريخ — لاتجد فيه بيتا واحدا من قصيدة رثى بها

النبي عليه الصلاة والسلام. ولولم يرد فى تاريخ الطبرى شعر البتّة لقلنا إن مؤرخنا الإسلامى العظيم قد جرى على طبعه من عدم الاهتمام بذكر الشعر فى كتابه الكبير . أولكن تاريخ الطبرى مملوء بأشعار غزار ، جاهلية وإسلامية ، فما باله يغفل المراثى التى قيلت فى رثاء النبي ويسقطها من حسابه ؟

ولقد جرى المؤرخ ابن الأثير صاحب « الكامل » على نهج مؤرخنا الطبرى فى كتابه من حيث عدم التعرض لرثاء الرسول ، فلم يذكر لنا مرثية شعرية واحدة ، أو مقطوعة قصيرة من الشعر قيلت فى رثاء نبي هذه الأمة .

ولعل المؤرخ الوحيد الذى لم يغفل ذكر مراثى الشعراء للرسول من كتابه ، ولم يسقطها من حسابه ، هو أبو محمد عبدالملك ابن هشام صاحب «سيرة النبي » والذى يعد أوثق مصادرنا عن حياة النبي وعن وفاته . إلا أن ابن هشام — لأمر لا نعلمه — لم يذكر من الشعراء الذين رثوا النبي صلى الله عليه وسلم إلا « حسان بن ثابت » .

والغريب أن الأبشيهى صاحب كتاب (المستطرف ، فى كل فن مستظرف) يروى فى كتابه هذا : (أن حسان بن ثابت سئل : مالك لم ترْثِ رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : لم أر شيئا إلا رأيته يقصر عنه) . وهذا الخبر يتعارض مع ما رواه ابن هشام صاحب السيرة من مراثى الشاعر حسان بن ثابت للرسول : فكيف غفل الأبشيهى — وهو واسع المعرفة بالأخبار والنوادر والأسمار — عن تلك المراثى الشعرية التى رواها ابن هشام فى السيرة ؟ ومن أين جاءه الخبر عن سؤال حسان : كيف لم يَرْثِ الرسول ؟ مع أن مراثى «حسان» للنبي مدونة وثابتة فى السيرة النبوية ، وفى ديوانه ؟

ولعل القصائد الأربعة التى رواها المؤرخ ابن هشام فى الجزء الأخير من السيرة النبوية تؤكد لنا أن «حسان بن ثابت» شارك فى رثاء النبي عليه السلام بأربع قصائد : ثلاث منها دالية القافية ، والرابعة منهن رائية القافية. والغريب كذلك أنها جاءت فى ديوان حسان كلها ، فكيف خفيت كلها أو واحدة منها على صاحب «المستطرف» حين روى فى كتابه الخبر الذى ذكرناه عنه .والغريب أيضا أن واحدة من مراثى «حسان بن ثابت» التى ذكرها ابن هشام والتى جاءت فى ديوانه ، قد بلغت من الطول ستة وأربعين بيتا ، فهى ليست قصيرة ولا مقطوعة صغيرة حتى تُغْفَل الإشارة إليها ، أو تسقط من حساب «الأبشيهى» ، أما الثانية فتبلغ عدة أبياتها سبعة عشر بيتا ، وهو قدر ليس باليسير . أما القصيدتان الأخريان فواحدة تبلغ عدة أبياتها ثمانية ، والثانية ستة أبيات .

وأطول قصائد حسان بن ثابت في رثاء النبي عليه الصلاة والسلام — وفق رواية المؤرخ ابن هشام — هي القصيدة الدالية التي أولها :

بطيبة رسمٌ للرسول ومعهد
منير ؛ وقد تعفو الرسوم وتهمد

وقد جاءت هذه المرثية في سيرة ابن هشام كاملة كما جاءت في ديوان حسان، وعدتها ستة وأربعون بيتا كما سلف القول .

ونبحث في « سيرة ابن هشام » عن مرثية نبوية لغير حسان بن ثابت ، فلا تجد إلا تلك المراثي الأربع (الحسانية) . ولا أدري لماذا لم يكن ابن هشام المؤرخ راصدا إلا لمراثي حسان بن ثابت ، فلم يلتفت في كتابه الجليل لمراثي غيره من الشعراء المعاصرين لذلك الخطب الجليل ؟

ولا شك أن اتصال «حسان بن ثابت» بالنبي وقربه منه ، وتنصيبه نفسه للدفاع عنه وعن دعوته حيا ، قد أثار في نفسه كوامن الأسى العميق حين قبض رسول الله إلى ربه ، فإذا شاعرنا العظيم ينفعل أشد الانفعال لهذا الحادث المروع له وللمسلمين والعرب جميعا ، وإذا شاعرية «حسان» المتدفقة تنهمر عن عدد من المراثي ، نحس ونحن نقرؤها أثر الفجيعة البالغة في نفس شاعر الرسول .

ولم يكن حسان بن ثابت وهو يرثي رسول الإسلام معبراً عن نفسه وحده أو عن المسلمين بصفة عامة ، ولكنه صور مصيبة « الأنصار » في النبي أدق تصوير ، حتى لقد خشي على مصير الأنصار بعد وفاته عليه السلام ؛ ولم يكن شاعرنا (حسان) في هذا إلا معبراً عن شعور قومه ، فهو أنصاري بل هو من السابقين منهم إلى الإسلام . وما أصدقه وهو يقول في هذا المعرض :

واللهِ أسمعُ ما بقيت بهالك
إلا بكيتُ على النبي محمد

ياويح أنصار النبي ورهطه
بعد المغيَّب في سواد الملحد

ضاقت بالانصار البلاد فأصبحوا
سوداً وجوههم كلون الإثمد

وما أكثر تفجعه وهو يبكيه بهذه الأبيات الرائية من قصيدة أخرى :

نَبَّ المساكين أن الخير فارقهم
مع الرسول تولى عنهم سَحَرا

من ذا الذي عنده رحلي وراحلتي
ورزق أهلي إذا لم يؤنسوا المطرا ؟

ذاك الذي ليس تخشاه مجالسه
إذا الحليس سطا في القول أو عثرا

كان الضياء ، وكان النور نتبعه
وكان بعد الإله السمع والبصرا

فليتنا يوم اروْه بمُلْحَدِه
وغيَّبوه ، وألقوا فوقه المدرا

لم يترك الله منا بعده أحدا
ولم يعش بعده أنثى ولا ذكرا ..

ورثاء « حسان بن ثابت » للرسول يجمع بين شعر العاطفة الخاصة التى تعبر عن شعور شخصى وانفعال ذاتى ، وبين شعر الرثاء العام الذى يعبر فيه الشاعر عن عظيم المصيبة فى المرثى أو خسارة الناس بفقده ، وحيرة أمورهم من بعده . ونرى « حسان بن ثابت » يجمع فى المرثية الواحدة للنبى عليه الصلاة والسلام بين هذين الاتجاهين ، فبينا يقول من قصيدة :

تالله ما حملت أنثى ولا وضعت
مثل الرسول نبى الأمة الهادى
ولا برَى الله خلقاً من بريته
أوْفَى بذمة جارٍ أو بميعاد

من الذى كان فينا يستضاء به
مبارك الأمر ، ذا عدل وإرشاد

إذا به يقول فى القصيدة نفسها عن نفسه واصفاً وحدته وتفرده بعد موت النبى :

يا أفضل الناس ! إنى كنت فى نهر
جار ، فأصبحت مثل المفرد الصادى ؟

وبينا يقول فى رثائه عليه السلام من قصيدة :

يابِكْر « آمنة » المبارك بكرَها
ولدته محصنةً بسعد الأسعد
نورا أضاء على البرية كلها
من يَهْدِ للنور المبارك يهتدى

إذا به يقول فى القصيدة نفسها واصفاً حالته بعد أن غيب النبى فى بقيع « الغرقد » :

ما بال عينك لا تنام كأنما
كحلت مآقيها بكحل الأرمد
جزعاً على المهدى أصبح ثاوياً
ياخير من وطىء الحصا لاتَبْعُد!
وجهى يقيك الترب! لهفى ! ليتنى
غيِّبت قبلك فى « بقيع الغرقد »
بأبى وأمى من شهدت وفاته
فى يوم الاثنين النبىُّ المهتدى !
فظللت بعد وفاته متلددا
ياليتنى صُبِّحت سم الأسود !
أأقيم بعدك فى (المدينة) بينهم
يالهف نفسى ليتنى لم أولد !

على أن شاعرنا حسان بن ثابت لم يستسلم فى مراثيه النبوية إلى البكاء والنحيب والتفجع وتمنى الموت — كما فعل فى البيت الذى قبل الأخير حيث تمنى فيه أن يسقى على الصباح سم الحيات ، حتى يرتاح ويتخلص من آلامه وأحزانه — ولكنه اتخذ من مراثيه للرسول معرضاً يعرض فيه أخلاقه النبوية ، وصفاته الكريمة ، على أنصع ما تعرض عليه الأخلاق حين يطويها الفناء — أو يطوى صاحبها — فلا يبقى إلا ذكرها ، ولا يأرج إلا عطرها .. اسمعه يقول من قصيدة أخرى فى وصف الرسول باكياً عليه ، مفجوعاً فيه :

إمام لهم . يهديهم الحق جاهداً
معلم صدق إن يطيعوه يسعدوا

عفو عن الزلات ، يقبل عذرهم
وإن يحسنوا فالله بالخير أجود

وإن ناب أمر لم يقوموا بحمله
فمن عنده تيسير ما يتشدد ..

فبينا هم فى نعمة الله بينهم
دليل به نهج الطريقة يقصد

عزيز عليه أن يجوروا عن الهدى
حريص على أن يستقيموا ويهتدوا

عطوف عليهم لا يثنى جناحه
إلى كنف يحنو عليهم ويمهد

فبيناهم فى ذلك النور إذ غدا
إلى نورهم سهم من الموت مقصد

فإذا بلغ حسان هذا المبلغ من وصف النبى مضى إلى وصف وحشة البلاد من فقده ، وانقطاع الوحى الذى كان ينزل عليه فيؤنس الأرض ، ويصف حسان هذه البقاع الموحشة الكئيبة لفقد الرسول ؛ إلا بقعة معمورة اللحد ضافها فقيد الإسلام الكريم ، وهى البقعة التى ضمت جسده الطاهر فهى روضة آنسة بضيافة الرسول . ويقوده هذا الوصف لموحش البقاع إلى استئناف البكاء ثانية ، فيستنزف دموع عينيه قطرة قطرة ، قائلا فى نغم باك حزين :

فبكى رسول الله ياعين عبرة
ولا أعرفنك الدهر دمعك يجمد

وما لك لا تبكين ذا النعمة التى
على الناس منها سابغ يتغمد ؟

فجودى عليه بالدموع وأعولى
لفقد الذى لامثله الدهر يوجد

ويظل « حسان » يبكى ويستنزف الدمع عينيه ، فإذا ما أعقبه انحدار الدمع راحة ، أو شفى شجى بلابله عاد إلى وصف الرسول قائلا :

وما فقد الماضون مثل « محمد »
ولا مثله حتى القيامة يفقد

أعف وأوفى ذمة بعد ذمة
وأقرب منه نائلا لاينكد

وأبذل منه للطريف وتالد
إذا ضنّ معطاء بما كان يتلد

وأكرم صيتاً فى البيوت إذا انتمى
وأكرم جدا أبطحياً يسود

وأمنع ذروات ، وأثبت فى العلا
دعائم عز شاهقات تشيد

وأثبت فرعاً فى الفروع ومنبتاً
وعوداً غذاه المزن فالعود أغيد

رباه وليدا فاستتم تمامه
على أكرم الخيرات ربٌّ ممجد ..

على أن رواية مؤرخ السيرة « ابن هشام » لمراثى « حسان » وحده فى الرسول عليه السلام لاتدل على أن شاعرنا قد انفرد وحده من بين شعراء عصر الرسالة برثاء الرسول . فهناك شعراء آخرون من الصحابة وغيرهم ، و شواعر كذلك رثوا النبى ، ولكن مراثيهم جاءت مشتتة ومتفرقة فى غير مظان ومن

هنا لم ينبه عليها ولم يلتفت إليها . فقد عقد المؤرخ الموسوعى المصرى (النويرى) صاحب « نهاية الأرب » فى الجزء الثامن عشر من موسوعته الحافلة فصلاعن مراثى الصحابة والشعراء للنبى عليه السلام . وأثبت لأبى بكر الصديق الخليفة الأول قطعتين فى رثاء النبى يقول فى أولاهما :

أيا عين فابكى . ولا تسأمى
وحقّ البكاء على السيد

على خير خِنْدف عند البلا
ء أمسى يغيب فى الملحد

فصلى المليك ولى العباد
ورب البلاد على (أحمد)

فكيف الحياة لفقد الحبيب
وزين المعاشر فى المشهد

فليت الممات لنا كلنا
وكنا جميعاً مع المهتدى !

ويقول فى الثانية :

لما رأيت نبينا متجدلا
ضاقت على بعرضهن الدور

وارتعت روعة مُسْتَهام واله
والعظم منى واهن مكسور

ياليتنى من قبل مهلك صاحبى
غيبت فى جدثٍ علىّ صخور

فلْتحدُثَنّ بدائعٌ من بعده
تعيا بهن جوانح وصدور

وروى الحافظ المفسر المؤرخ « عماد الدين ابن كثير » صاحب كتاب (البداية والنهاية) فى كتابه هذا مرثيتين فى الرسول ؛ أولاهما دالية حسان بن ثابت التى سبقت الإشارة إليها ، والتى مطلعها :

(بطيبة) رسم للرسول ومعهد
منير وقد تعفو الرسوم وتمهد

وثانيتهما قصيدة « لأبى سفيان بن الحارث ابن عبد المطلب » ، وهو ابن عم النبى صلى الله عليه وسلم . وكان أبو سفيان هذا شاعراً ، وقد أسلم يوم فتح مكة بعد أن عادى الرسول زماناً وعرض نفسه على النبى فأذن له النبى بعد تمنع لما كان يلقاه من عداوته قبل إسلامه . فلما أدخل على رسول الله أنشد بين يديه قصيدة يعتذر فيها مما مضى منه ، ويقول فى أوائلها :

لعمرك إنى يوم أحمل راية
لتحمل خيلُ «اللات» خيلَ محمد

لكا لمدلج الحيران أظلم ليله
فهذا أوانى حين أُهدَى وأهتدى

فلما مات عليه الصلاة والسلام رثاه بالأبيات التى أوردها ابن كثير فى « البداية والنهاية » ، ولم يذكرها أو يشر إليها ابن الأثير ، ولا الطبرى ، ولا ابن هشام صاحب السيرة كما سلف القول . ولكن جاء ذكرها فى كتاب متأخر عنوانه : (الذخائر والأعلاق، فى آداب النفوس ومكارم الأخلاق) للإمام أبى الحسن بن سلام الباهلى ، إلا أن روايتها

فى « البداية والنهاية » تختلف عن روايتها فى « الذخائر » ونحن مثبتون هنا نصها كما جاءت فى « تاريخ ابن كثير » :

أرقت فبات ليـــلى لا يزول
وليـــل أخى المصيبة فيه طول

وأسعدنى البكاء ، وذاك فيما
أصيب المسلمون به قليـــل

لقد عظمت مصيبتنا ، وجلّت
عشية قيل : قد قبض الرسول

وأضحت أرضنا ممـــا عراها
تكاد بنـــا جوانبها تميل ..!

فقدنا الوحى والتنزيل فينـــا
يروح به ويغدو « جبرئيل »

وذاك أحق ما سالت عليـــه
نفوس الناس أو كَرُبت تسيل

نبى كان يجلو الشك عنـــا
بما يوحى إليـــه وما يقول

ويهدينا فلا نخشى ضلالا
علينا ، والرسول لنـــا دليل

« أفاطم » إن جزعت فذاك عذر
وإن لم تجزعى ذاك السبيل

فقبر أبيك سيد كل قبر
وفيـــه سيد الناس الرسول

وأما رواية « الذخائر والأعلاق » ففيها هذه الأبيات الزائدة التى لم ترد فى (البداية والنهاية) :

كأن الناس إذ فقدوه عمىٌ
أضر بلب حازمهم غليـــل

وفيها فى وصف النبى :

يخبرنا بظهر الغيب عمـــا
يكون ، ولا يحور ، ولا يحول

وفيها خطابٌ لفاطمة الزهراء بنت النبى عليهما السلام :

فعودى بالعزاء ، فإن فيـــه
ثواب الله والفضل الجزيل

ولاشك أن وفاة النبى عليه الصلاة والسلام كانت حدثاً جليلا نزل بالإسلام وتلقاه المسلمون بالدهشة . فهذا عمر بن الخطاب قام فى الناس قائلا يوم التحق الرسول بالرفيق الأعلى : (إن رجالا من المنافقين يزعمون أن رسول الله قد توفى ؛ وإن رسول الله مامات ، ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران ، فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ، ثم رجع إليهم بعد أن قيل : قد مات . والله ليرجعن رسول الله كما يرجع موسى ! فليقطعن أيدى رجال وأرجلهم زعموا أن رسول الله قد مات !) . ولم يُفِقْ عمر بن الخطاب من دهشته إلا حين نبهه أبو بكر فى خطبته التى خطبها يوم الوفاة إلى قوله تعالى : (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم). وإلى قوله عز شأنه فى موضع

آخر من القرآن الكريم : (إنك ميت وإنهم ميتون) .

فما مبلغ أثر وفاة النبي فى نفوس بقية الشعراء غير حسان بن ثابت وغير أبى سفيان ابن الحارث بن عبد المطلب ابن عم النبي عليه السلام ؟ وأين كان فى ذلك اليوم المغبرة آفاق سمائه عبد الله بن الزبعرى ، وعبد الله ابن أنيس ، وضرار بن الخطاب ، وكعب ابن مالك ، وعبد الله بن رواحة ، وعلى بن أبى طالب ؟ وأين كان من الشواعر السيدة فاطمة بنت محمد عليها السلام ، وصفية بنت عبد المطلب عمة الرسول ، والخنساء الشاعرة التى رثت قبل ذلك أخويها : صخراً ومعاوية ، كما بكت — بدموعها فقط لا بشعرها — أبناءها الأربعة الذين استشهدوا فى حرب القادسية فى السنة السادسة عشرة من الهجرة ؟

لقد كان نصيب رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قبض إلى ربه أبياتاً رثاه بها كعب ابن مالك الأنصارى ، وهو فى هذا يشترك مع أخيه فى الإسلام و شريكه فى النسب إلى الأنصار : حسان بن ثابت .

ومقام « كعب بن مالك » فى الشعر معروف مشهور ، وقصائده فى رفع الأذى عن صاحب الدعوة الإسلامية مذكور كثير منها فى كتب السيرة ، وخاصة سيرة ابن هشام . وقد شهد له صاحب كتاب (نكت الهميان ، فى نكت العميان) بقوله : (كان مجوّدا مطبوعاً . قد غلب عليه فى الجاهلية أمر الشعر وعرف به ، وأسلم وشهد أُحُداً والمشاهد كلها ، حاشى تبوك ، فإنه تخلّف عنها) وقد ترجم له « الصفدى » فى كتابه « نكت الهميان » هذا الذى صنعه فى أخبار من فقدوا بصرهم لأنه أصيب بالعمى فى آخر عمره .

ولم ترد مرثية « كعب بن مالك » للرسول فى الطبرى ، وابن الاثير وابن كثير ولا فى سيرة ابن هشام ، ولا فى « إمتاع الأسماع » للمقريزى ، ولا فى « نهاية الأرب » للنويرى ، ولا فى « المنتظم » لابن الجوزى ، ولا فى ابن قتيبة ، ولا فى تاريخ اليعقوبى ، فلم يذكرها واحد من هذه الكتب التى كانت مظنة ورودها ، بل لم يشر إليها ، ولكنها وردت فى كتاب (الذخائر والأعلاق) للباهلى وهو من رجال القرن التاسع بالأندلس ، ولا أدرى عن أى مصدر نقلها . ولا نعرف من حياة صاحب الذخائر والأعلاق إلا سطراً أو سطرين عند صاحب (كشف الظنون) ، وعند يوسف أليان سركيس صاحب (معجم المطبوعات العربية) . والأبيات التى أوردها الباهلى خمسة فقط . ولعلها منتقاة من قصيدة طويلة وقعت له . وهذه هى :

وباكية حرّاء تحزن بالبكا
وتلطم منها خدها والمقلدا
على هالك بعد النبى محمد
ولو علمت لم تبك إلا « محمدا »

فجعنا بخير الناس حيـــا وميتا
وأدناه من رب البرية مقعداً

وأفظعهم فقدا على كل مسلم
وأعظمهم فى الناس كلهم يداً

لقد ورثت أخلاقه المجد والتقى
فلم تلقه إلا رشيداً ومرشدا

ومن عجائب الروايات فى الشعر العربى أن « أبا الفرج الأصبهانى » صاحب كتاب (الأغانى) حين ترجم لكعب بن مالك وأورد طرفاً من أخباره وشعره ، لم يشر مطلقاً إلى رثائه للنبى عليه السلام على حين أنه أشار لمرثيته للشهيد « عثمان بن عفان » الخليفة الثالث ، وذكر منها أربعة عشر بيتا. فما معنى ذلك ؟ هل معناه أنه لم تصل إلى سمعه مرثية « كعب بن مالك » للرسول ؟ أم أن الأبيات التى أوردها « الباهلى » صاحب الذخائر ليست له ؟ الحق أننا لا نستطيع الجزم بكلمة فى جواب هذا السؤال .

ولكنا نحمد الله على هذا القدر الذى وصل إلينا من مرثية « كعب بن مالك » للرسول فإن كثيراً من شعره قد ضاع ، لولا ما حققه وحفظه لنا « ابن هشام » صاحب السيرة النبوية . من شعر كعب الذى قل أن نجده فى كتاب سواها .

أما عبد الله بن أنيس — بصيغة التصغير — فقد روى له صاحب (الذخائر والأعلاق) خمسة أبيات لا غير فى رثاء الرسول ؛ فكانت أبياته — من حيث العدد — كأبيات كعب بن مالك . ولم أعثر على مصدر آخر لهذه المرثية غير « ذخائر الباهلى » . وابن أنيس هذا من الصحابة الذين شهدوا بيعة العقبة ، وكان من شجعان المسلمين . ويذكر « ابن هشام » صاحب السيرة النبوية ، أنه كان من الأوائل الذين تسابقوا إلى قتل « ابن أبى الحقيق » ، لأنه كان أحد الذين حزّبوا الأحزاب على النبى وأصحابه . وقد تحامل ابن أنيس على ابن أبى الحقيق بسيفه فى بطنه حتى أنفذه ، وهو يقول : قطنى : قطنى . أى : حسبى ؟ حسبى ؟ وكان ابن (أنيس) هذا يجمع بين الشجاعة والشعر ؛ وقد روى له ابن هشام قصيدة يصف بها قتاله « لابن سفيان بن نبيح الهذلى » ، الذى كان يؤلب الناس على قتال الرسول ، وقد ظفر « ابن أنيس » بالهذلى فقتله ، وقدم على رسول الله يبشره بمقتله . فلما رآه النبى قال : أفلح الوجه .

وليس من موضوعنا هنا أن نذكر قصيدة « عبد الله بن أنيس » فى قتله لابن نبيح الهذلى ، فهى ليست من باب هذا البحث فى المراثى النبوية ، ولكن مرثيته للرسول عليه السلام هى كما ذكرها الباهلى الأشبيلى فى ذخائره :

تطاول ليلى ، واعترانى القوارع
وخطب جليل للخلائق جامع

غداة نعى الناعى إلينا « محمدا »
وتلك التى تستلك منها المسامع

وقد قبض الله النبيين قبـــله
وعاد أصيب قبله والتوابع[1]

فآليت لا آسى على هلك هالك
مدى الدهر مارسا (ثبير) و(فارع)

فيا لقريش قلّدوا الأمر بعضكم
فإن نصير القوم للقوم نافع

أما « عبد الله بن الزبَعْرى » فلم نقع فى مصادر تاريخى أو أدبى على مرثية له فى الرسول عليه الصلاة والسلام . ولقد كان شاعراً فحلا ، بل كان شاعر « قريش » فى الجاهلية . ومهما كان من أمر شدته على النبى والمسلمين بالأذى بلسانه فقد أسلم واعتذر للنبى ومدحه ، فأمر له النبى بحلة . ولقد عاش حتى سنة ١٥ من الهجرة ، أعنى أنه أدرك وفاة الرسول ، فما الذى أسكته عن رثائه ، وصرفه عن بكائه ؟ أو ما الذى أسكت المصادر عن أن توصل إلينا رثاءه للنبى لو كان وقع منه رثاء، وشارك مع الباكين من الشعراء على محمد ؟ سؤالان لا نستطيع القطع فيهما بجواب إلا إذا ادّعينا أننا أحطنا بأخبار « ابن الزبعرى » كلها ، وبشعره كله وبحوادث السيرة النبوية كلها تفصيلا . وهيهات ! هيهات !

أما زميله فى الشاعرية : « عبد الله بن رواحة » ، الذى كان أحد شعراء الدعوة الإسلامية وأحد أمرائها البارزين ، فقد استشهد فى السنة الثامنة من الهجرة فى غزوة مؤتة ، فلم يكن له أن يدرك وفاة الرسول ، وبالطبع لم يكن له أن يكون فى أصحاب المراثى النبوية .

أما « ضرار بن الخطاب » ، الصحابى الفارس الشاعر فلم نجد له فى أصحاب المراثى النبوية ذكراً ، ولم نقرأ له شعرا ، على حين تمتلىء صفحته بالبطولة والفروسية والجهاد فى سبيل الله . وقد عاش إلى السنة الثالثة عشرة من الهجرة ، فشهد موقعة أجنادين واستشهد فيها . وله فى فتح الشام فى عهد عمر بن الخطاب أخبار طوال . فأين شعره الذى رثى به الرسول يوم وفاته ؟ ألم تتحرك شاعريته فى ذلك اليوم الرعيب الذى هز عواطف المسلمين ، بل هز كيانهم هزاً عنيفاً ؟

على أننا بينما لانجد مراثى شعرية للنبى عليه السلام عند « عبد الله بن الزبعرى » و« وضرار بن الخطاب » وهما من شعراء الرسول وألسنة الدعوة المحمدية ، نجد عند الباهلى الأشبيلى صاحب (الذخائر والأعلاق) قصيدتين ؛ إحداهما لعمر بن الخطاب والثانية للإمام على بن أبى طالب . وقد انفرد

---

(١) هكذا وردت بمطبوعة (الذخائر والأعلاق) وفيها تصحيف غير قليل ، ولعلها : التبابع جمع تبع .

كتاب الذخائر بذكر المرثيتين . أما الأولى فهذا نصها كما جاءت فى كتاب الباهلى :

مازلت مذ وضع الفراش لجنبه
وثوى مريضاً ، خائفاً أتوجع

شفقاً عليه أن يزول مكانه
عنا ، فنبقى بعده نتفجع

نفسى فداؤك ؟ من لنا فى أمرنا
أم من نشاوره إذا نتوجع ؟

وإذا تحل بنا الحوادث من لنا
بالوحى من رب رحيم يسمع ؟

ليت السماء تفطرت أكنافها
وتناثرت منها النجوم الطلع !

لما رأيت الناس هدّ جميعهم
صوت ينادى بالنعى فيسمع

وسمعت صوتاً قبل ذلك هدنى
(عباس) ينعاه بصوت يفظع

فليبكه أهل المدائن كلهـــا
والمسلمون بكل أرض تجزع[1]

وأما أبيات الإمام « على » فى رثاء الرسول فهى كما يلى نقلا عن المصدر السابق :

ألا طرق الناعى بليل فراعنى
وأرّقنى لمـــا استقل مناديا

فقلت له لمـــا رأيت الذى أتى
أغير رسول الله إن كنت ناعيا ؟

فحقق ما أشفقت منه ، ولم يبل
وكان خليلى عزة وجماليا

فوالله ما أنساك «أحمد» ، مامشت
بى العيس فى أرض وجاورت واديا

وكنت متى أهبطْ من الأرض تلْعة
أرى أثراً منه جديداً وعافيا .

وبعد ؟ فهذا شعر الرجال من الشعراء الذى أثر حتى القرن التاسع فى رثاء النبى عليه السلام ، أو على الأقل هذا هو الشعر الذى وصل إلينا عن مصادر تاريخية وأدبية قديمة ومتأخرة ، وأحطنا به خبراً فيما بين أيدينا من مراجع . ولم ينفرد الرجال وحدهم برثاء النبى العربى محمد صلى الله عليه وسلم ، فقد روت بعض المصادر شعراً للسيدتين الطاهرتين : فاطمة بنت محمد عليها السلام ، وصفية بنت عبد المطلب بن هاشم عمة النبى .

أما فاطمة الزهراء ، فقد روى لها ابن رشيق القيروانى فى كتابه (العمدة) أبياتاً مؤثرة حزينة فى رثاء أبيها محمد عليه السلام ، كما روى هذه الأبيات أيضاً أبو إسحاق الحصرى صاحب كتاب (زهر الآداب) ، ونقلها أيضاً الأستاذ عمـــر رضا كحالة فى موسوعة (أعلام النساء) ج ٣ ص ١٢٠٤ والأبيات كما رواها صاحب زهر الأداب هى :

اغبرّ آفاق السماء وكوّرت
شمس النهار ، وأظلم العصران

---

(١) روى السهيلى فى كتابه (الروض الأنف) أبياتا عينيه أخرى ومن وزن آخر لعمر بن الخطاب ج ٢ ص ٢٧٧

فالأرض من بعد النبي كئيبة
أسفاً عليه كثيرة الرجفان

فليبكه شرق البلاد وغربها
وليبكه مضر وكل يماني

وليبكه (الطور) المعظم جوه
والبيت ذو الأستار والأركان

يا خاتم الرسل المبارك ضوؤه
صلى عليك منزل الفرقان

وقد عد ابن رشيق القيرواني هذه المرتبة مثلا يحتذى في الرثاء ، وتمنى على شاعر كالكميت أن يقول مثله في رثاء الرسول ، بدلا من قوله في إحدى هاشمياته :

وبورك قبر أنت فيه ، وبوركت
به وله أهل بذلك يثرب

لقد غيبوا برا ، وحزماً ، ونائلا
عشية واراه الضريح المنصب

ويذكر صاحب (أعلام النساء) أن فاطمة عليها السلام وقفت على قبر أبيها المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وأخذت قبضة من تراب القبر ، فوضعتها على عينها ، وبكت وأنشأت تقول :

ماذا على من شم تربة أحمد
أن لا يشم مدى الزمان غواليا ؟

صُبَّتْ على مصائب ، لو أنها
صُبَّت على الأيام صرن لياليا !

وقالت على قبره :

إنا فقدناك فَقْدَ الأرض وابلَها
وغاب ـ مُذْ غبتَ عنا ـ الوحي والكتب

فليت قبلك كان الموت صادفنا
لما نعيت ، وحالت دونك الكثب !

وأما صفية عمة النبي عليها السلام ، فقد روت لها الأديبة المرحومة زينب عبد الله فوّاز صاحبة كتاب (الدُّر المنثور ، في طبقات ربّات الخدُور) خمسة أبيات في رثاء محمد عليه الصلاة والسلام ، إلا أن الباهلي الأشبيلي صاحب (الذخائر والأعلاق) روى لها مرثية أخرى تبلغ عدتها عشرة أبيات ، نذكرها فيما يلي :

ألا يا رسول الله ! كنت رجاءنا
وكنت بنا برًّا ولم تك جافيا

لعمرك ما أبكى النبي لموته
ولكن أمرا بعده كان آتياً

أفاطم ! صلى الله رب محمد
على جدث أمسى بيثرب ثاوياً

فدا لرسول الله أمي وأسرتي
وعمي ، ونفسي ، والجدود ، وخاليا

وكنت لنا حرزا حصينا نبينا
ليبك عليك اليوم من كان باكيا

كأن على قلبي لذكر محمد
وما خفت من بعد النبي المكاويا !

أبا حسن : أيتمته وتركته
يبكي ، ويدعو جده اليوم نائيا

صبرت، وبلغت الرسالة صادقاً
وقمت صليب الدين، أبلج صافيا
فلو أن رب الخلق أبقاك سالما
سعدنا ولكن أمره كان ماضيا
عليك من الله السلام تحية
وأدخلت جنات من العدن راضياً

على أن لها قصيدة يائية أخرى في رثاء النبي عليه السلام، أورد صاحب معجم (أعلام النساء) بيتا واحداً منها، أما الأبيات كلها فقد ذكرت كاملة في (الذخائر والأعلاق) الذى نعده أخصب وأحفل مصادرنا فى مراثى الشعراء للنبي. وهذه القصيدة اليائية التى أوردها الباهلى للسيدة صفية هى من أرق ما رثى به النبي عليه الصلاة و السلام، ونحن موردوها هنا كما جاءت في كتاب (الذخائر والأعلاق):

مالعينى لا تجودان ريا
إذ فقدنا خير البرية حيا
يوم نادى إلى الصلاة بلال
فبكينا عند النداء مليا . .
لم أجد قبلها ولست بلاق(١)
بعدها غصة أمرّ عليّا
جل يوم أصبحت فيه عليلا
لايرد الجواب منك إليّا
ليت يومى يكون قبلك يوما
أنضج القلب للحرارة كيا
خلقا عاليا، ودينا كريما
وصراطا يهدى إليه سويا
وسراجا يجلو الظلام منيرا
ونبيّا مسدداً عربيا
حازما، عازما، حليما، كريما
عائدا بالنوال، برا، تقيا
إنّ يوما أتى عليك ليوم
كورت شمسه وكان جليا
فعليك السلام منا ومن ربك (م)
بالروح بكرة، وعشيا

وقد أخرج الطبراني عن جماعة أنه لما قبض النبي عليه الصلاة والسلام خرجت عمته (صفية) تلمع بردائها وهى تقول:

قد كان بعدك أنباء وهنبثة
لو كنت شاهدها لم تكثر الخطب
إنا فقدناك فقد الأرض وابلها
واختل قومك فاشهدهم فقد سغبوا

وقد روى الجاحظ هذا الخبر في كتابه (البيان والتبيين) ج ٣ ص ٢٠٤ بتحقيق المرحوم حسن السندوبى ذاكرا لفظه: (هنتشة) بنون وتاء وشين معجمة، بدلا من (هنبثة) بنون وباء وثاء فوقية مثلثة

(١) كان المقتضى أن تكون العبارة هكذا: (ولست بلاقية) لأن صاحبة الشعر مؤنثة . . . وهذا مما يلقى ظلالا من الشك حول نسبة الأبيات إلى صفية بنت عبد المطلب . .

وهى الأمر الشديد .أما الهنتشة كما ذكرها السندوبى رحمه الله فلا معنى لها . .

ومن أغرب الروايات أن صاحب (أعلام النساء) قد روى البيتين السابقين منسوبين إلى السيدة فاطمة الزهراء بنت النبى عليهما السلام ج ٣ ص ١٢١٣ وأضاف إليهما بيتا ثالثا ، وهو :

فليت بعدك كان الموت صادفنا
لما قضيت وحالت دونك الكتب

ويلاحظ القارىء الكريم أن بعض هذه الأبيات الباثية — بالباء التحتية الموحدة — كما رواها صاحب (أعلام النساء) مشترك بين السيدة فاطمة بنت محمد ،والسيدة صفية بنت عبد المطلب ...

على أن أغرب مافى مراثى النبى عليه السلام هو ما ذكره الباهلى الأشبيلى منسوباً إلى (هند بنت عبد المطلب) تخاطب فاطمة الزهراء قائلة :

أفاطم فاصبرى : فلقد أصابت
مصيبتك التهائم والنجودا
وأهـــل البر والأبحار طرا
فـــلم تخطىء مصيبته وحيداً ..
ألم يلك خير من ركب المطـايا
وأكرمهم — إذا نسبوا — جدودا؟
وكان المجـــد يصبح فى ذراه
سعيد المجـــد قد ولد السعودا

فموتى ! إن قدرت بأن تموتى
فقدت الطيب ، الرجل ، المجيدا
رسول الله ، خير النـــاس حقا
فلست أرى له أبداً نديدا . .

ومهما يكن فى هذه الأبيات من رقة وسلاسة وحسن سبك فإنك لو بحثت فى تاريخ عصر النبوة عن شخصية نسوية تحمل اسم (هند بنت عبد المطلب) لأعياك البحث ، ولن تجد لها وجودا . . . وإذا كان ظاهر هذا الاسم يوهم أنه لعمة من عمات النبى عليه الصلاة والسلام ، ولأخت من أخوات صفية بنت عبد المطلب فإن المؤرخ الإخبارى (ابن قتيبة) يذكر لنا فى كتابه (المعارف) أن بنات عبد المطلب وعمات النبى فى الوقت نفسه هن : عاتكة ، وأميمة ، والبيضاء ، وبرة ، وصفية ، وأروى . وكذلك يذكر المؤرخ ابن الجوزى فى كتابه (صفة الصفوة) المطبوع بحيدر أباد الدكن حـ ١ ص ٥٦ .

فمن أين هذه « الهند المطلبية » التى جاء بها الباهلى الأشبيلى ؟ ومن أين جاءت تلك الأبيات فى رثاء الرسول صلى الله عليه وسلم التى رواها صاحب الأعلاق ، أو صاحب (الذخائر والأعلاق) ونسبها إلى المزعومة : هند بنت عبد المطلب ؟

على أننا قرأنا هذه الأبيات الدالية وأخرى غيرها فى (نهاية الأرب) للنويرى ، جـ ١٧ ص ٤٠٠ ، وهى فيه « لهند بنت أثاثة »

ابن عباد بن عبد المطلب ، بن عبد مناف . ولعلها (هند بنت عبد المطلب) التي ذكرها الباهلي الأشبيلي اختصاراً ، فأوقعنا في حيرة من الأمر ، وحسبنا أنها عمة النبي مباشرة ولكنها ليست ابنة عبد المطلب ، وإنما هي واحدة من حفدته ونورد هنا بعض مارواه النويري — صاحب نهاية الأرب — من هذه المرثية لنرى الفرق الواضح بين الروايتين ولنعجب من حيرتنا البالغة مع رواة الشعر :

أشاب ذوائبي ، و أذاب ركني
بكاؤك فاطم الميت الفقيدا

فأعطيت العطاء ، فلم تكدر
وأخدمت الولائد والعبيدا

وكنت ملاذنا في كل لزب
إذا هبت شآمية برودا

وإنك خير من ركب المطايا
وأكرمهم — إذا نسبوا — جديداً

رسول الله فارقنا ، وكنا
نرجّى أن يكون لنا خلودا ...

أحسن الله إلى من يدلنا على وجه الصواب في هذه الأبيات ، وفيما نقلناه قبل ذلك من شعر في رثاء نبي هذه الأمة الكريمة : محمد ابن عبد الله ص.

ويدعونا ذكر السيدة صفية عمة الرسول في هذه المناسبة إلى استحضار عمة أخرى للنبي عليه السلام هي (عاتكة بنت عبد المطلب) فقد روى لها النويري صاحب (نهاية الأرب) — في الجزء الثامن عشر ص ٤٠٠ مرثية في النبي عليه الصلاة والسلام تقول فيها :

ياعين جودي — ما بقيت — بعبرة
سحاً على خير البرية (أحمد)

ياعين ! فاحتفلي، وسحّي واسمحي
فابكي على نور النبي (محمد)

أنى — لك الويلات — مثل محمد
في كل نائبة تنوب ومشهد ؟

من ذا يفك عن المغلل غله
بعد المغيب في الضريح الملحد ؟

وقد نسب صاحب (نهاية الأرب) أيضا مرثية في النبي قالتها عمته (أروى) بنت عبد المطلب ، ومطلعها :

ألا ياعين ويحك ؟ أسعديني
بدمعك — مابقيت — وطاوعيني

وأغلب ظني أن التكلف والانتحال يبدوان على هذا الشعر ... ؟

وقبل أن نختم هذه الدراسة الأولى في الأدب العربي عن مراثي الشعراء للنبي عليه السلام ، لابد من الإشارة إلى أبيات حائية — بالحاء المهملة — ذكر السهيلي صاحب (الروض الأنف) أن الشاعر أبا ذؤيب الهذلي بكى بها النبي ساعة دفنه . وأبو ذؤيب — كما يقول السهيلي — هو خويلد بن خالد ، وقيل ابن محرث .

وندع الشاعر أبا ذؤيب نفسه يحدثنا بعبارته، واصفا موت النبي عليه السلام ، ودفنه قائلا : (بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عليل، فاستشعرت حزنا ، وبت بأطول ليلة لاينجاب دَيْجُورُها ولا يطلع نورها ؛ فظللت أقاسى طولها . حتى إذا كان قرب السحر أغفيت ، فهتف بى هاتف وهو يقول :

خطب أجل أناخ بالإسلام
بين النخيل ، ومعقد الآطام
قبض النبي محمد . . . فعيوننا
تذرى الدموع عليه بالتسجام

قال أبو ذؤيب : فوثبت من نومى فزعا، فنظرت إلى السماء ، فلم أر إلا سعد الذابح(١) ، فتفاءلت به ذبحا يقع فى العرب . وعلمت أن النبي صلى الله عليه وسلم قد قبض وهو ميت من علته ، فركبت ناقتى ، وسرت . فلما أصبحت طلبت شيئا أزجر به ، فعن لى شَيْهَم —يعنى القنفذ قد قبض على صل— يعنى الحية — فهى تلتوى عليه ، والشَيْهَم يقضمها حتى أكلها . . . فزجرت ذلك ، وقلت : شيهم، شيء مهم ، والتواء الصل التواء الناس عن الحق على القائم بعد النبي . . ثم أكل الشيهم إياها غلبة القائم بعده على الأمر . فحثثت ناقتى ؛ حتى إذا كنت بالغابة زجرت الطائر ، فأخبرنى بوفاته ، ونعب غراب سانح ، فنظر مثل ذلك ! فتعوذت بالله من شر ما عن لى فى طريقى . وقدمت المدينة ، ولها ضجيج بالبكاء كضجيج الحجيج إذا أهلوا بالإحرام . فقلت : مه ؟ فقالوا: قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجئت المسجد فوجدته خالياً ، فأتيت رسول الله ، فأصبت بابه مرتجا ، وقيل : هو مسجى قد خلا به أهله . فقلت : أين الناس ؟ فقيل : فى سقيفة بنى ساعدة صاروا إلى الأنصار . فجئت إلى السقيفة فأصبت أبا بكر وعمر وأبا عبيدة بن الجراح وسالما . وجماعة من قريش . ورأيت الأنصار فيهم سعد بن عبادة ، وفيهم شعراؤهم : حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وملأ منهم ، فأويت إلى قريش ، وتكلمت الأنصار ، فأطالوا الخطاب ، وأكثروا الصواب . وتكلم أبو بكر رضى الله عنه ، فلله دره من رجل لايطيل الكلام ، ويعلم مواضع فصل الخطاب ! ! والله لقد تكلم بكلام لا يسمعه سامع إلا انقاد له ، ومال إليه . ثم تكلم عمر رضى الله عنه بعده دون كلامه ! ومد يده فبايعه وبايعوه . ورجع أبو بكر ورجعت معه .. . فشهدت الصلاة على محمد و شهدت دفنه) . ثم أنشد أبو ذؤيب يبكى النبي صلى الله عليه وسلم قائلا :

لما رأيت الناس فى عسلانهم
من بين ملحود له ومضرح

(١) سعد الذابح هو الثانى والعشرون من منازل القمر ، وهما نجمان فى الجدى . ومنازل القمر يسميها العرب نجوم الأخذ، وعددها ثمانية وعشرون منزلا . ومنها : سعد السعود ، ومنزله الخامس والعشرون فى الدلو والجدى . . .

متبادرين لِشَرَّحجٍ بأكفهم
نص الرقاب لفقد أبيض أروح

فهناك صرت إلى الهموم . ومن يبت
جار الهموم يبيت غير مروح

كسفت لمصرعه النجوم وبدرها
وتزعزعت آطام بطن الأبطح

وتزعزعت أجبال يثرب كلها
ونخيلها لحلول خطب مفدح !

ولقد زجرت الطير قبل وفاته
بمصابه ، وزجرت سعد الأذبح

وأبو ذؤيب هذا هو صاحب العينية المشهورة التى رثى بها أولاده الخمسة ، وكانوا قد ماتوا جميعا فى عام واحد نتيجة إصابتهم بالطاعون ، ومطلعها :

أمن المنون وريبه تتوجع
والدهر ليس بمعتب من يجزع

والهذلى هذا شاعر مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام ، وأسلم فحسن إسلامه ، وشارك فى عدد من الغزوات ، وامتد به العمر حتى شارك فى فتح إفريقية سنة ست وعشرين من الهجرة .

والذى يلفت النظر أن أبا الفرج الأصفهانى صاحب كتاب الأغانى ترجم له فى الجزء السادس فى بضع عشرة صفحة ، وذكر طرفا غير قليل من أخباره وأشعاره ، ولكنه لم يشر إلى شهوده وفاة النبى عليه السلام وحضور دفنه ، كما لم يشر إلى مرثيته له التى أوردها السهيلى صاحب (الروض الأنف) فى شرح السيرة النبوية لابن هشام كما ذكرنا قبل ذلك بسطور ، والسهيلى — كما أراه — حجة موثوق به ، فمن أين أتى بهذه الرواية ؟ لعله اطلع عليها فى مصدر مفقود . والعلم عند علام الغيوب .

محمد عبد الغنى حسن
عضو المجمع